الجذور الشعبية المقدسية
Grassroots Al-Quds

سياسة التشجير: إخفاء الاستعمار في فلسطين



تصوير : مصطفى الغروز

في نهاية شهر آب من صيف عام 2021، اندلعت حرائق ضخمة في جبال القدس، التهمت إثرها النيران ما يقارب 30،000 دونمٍ من الأراضي. ومع انطفاء نيران هذه الكارثة الطبيعية، تكشّفت حقيقة هذه الأرض، والتي حاولت السلطات الإسرائيلية إخفاءها لما يزيد عن خمسة عقود من الزمن.

بعد أن أُخمدت النيران، كشفت الحرائقُ عن أنقاض القرى الفلسطينية المحتلة والمهجرة والمدمرة عام 1948 ومدرجات هذه القرى الزراعية، التي بناها أهل الأرض الذين قبل زمن طويل من تهجيرهم، حيث يقدّر علماء الآثار بناءها قبل ما يقا`رب 600 عام، فيما يعتقد بعض المزارعون الفلسطينيون أنّها تتجاوز ذلك بكثير.

تمتاز هذه المدرجات الزراعية التي أطلق عليها المزارعون الفلسطينيون اسم المصاطب بمتانتها، وقد بنوها ليتمكّنوا من زراعة محاصيلهم وغرس أشجار الزيتون والكروم على سفوح الجبال.

تاريخيًا، شاعت زراعة هذه الأراضي بأشجار الزيتون وكروم العنب، لما توفره هذه النباتات من فوائد، فأشجارها تُحافظ على رطوبة التربة وتوفر قوتًا للمزارعين الفلسطينيين. وتساعد أشجار الزيتون تحديدًا على منع تآكل التربة. كما تعمل أشجار الزيتون وكروم العنب على خلقِ حاجزٍ طبيعيٍ للحرائق، لما تمتاز به أوراقها من خاصّيّة الاحتفاظ بالرطوبة وعدم الحاجة إلى الكثير من الماء. لقد أدرك المزارعون الفلسطينيون كيفية التعامل مع طبيعة بلادهم، وعلى مرّ العقود، تشكلت علاقة الفلسطيني بأرضه وفق هذه المنفعة.

أما اليوم فتسيطر غابات الصنوبر والسرو غير الأصيلة بقابليتها العالية للاشتعال على المشهد الطبيعي لجبال القدس الغربية والجنوبية، فمن أين جاءتنا غابات الصنوبر والسرو؟ وأين اختفت كروم الزيتون والعنب؟

على مدار الأعوام المئة الماضية، عملت الحركة الصهيونية، ومن بعدها مؤسسات الاحتلال على تشجير أجزاء كبيرة من فلسطين، وخاصة القرى المحتلة عام 1948، زاعمةً في كثير من الأحيان أنّ ذلك "سيساهم في ازدهار البرية". لكنّ هذا الادعاء لم يدم طويلًا، خاصّة في وجه التأثير السلبي لحملات زراعة أشجار الصنوبر والسرو على النظام البيئي والبيئة الحيوية.



مصدر الصورة: مركز حفظ التراث الثقافي.

مع نشأة الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر، أخذ الصهاينة يروّجون مساعيهم في احتلال فلسطين بإنكار الوجود الفلسطيني. وقد طال هذا الإنكار أيضًا المشهد الطبيعي في الأرض الفلسطينية، فقد كتب مؤسس الصهيونية ثيودور هرتزل في عام 1898 أنّ فلسطين: "أرض فقيرة ومهملة... وحقولها بوار".

أُسندت هذه المهمة إلى الصندوق القومي اليهودي (JNF)، الذي يُعد من أهم الأجهزة التي أسّست للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في أرض فلسطين. تأسّس الصندوق عام ١٩٠٩ وتولّى إعادة تشكيل مشهد فلسطين الطبيعي بما يتناسب والمطامع الصهيونية في البلاد.

بدأ الصندوق القومي اليهودي حملات التشجير وزراعة الغابات في عام 1920 بالتعاون مع جمعية استعمار فلسطين اليهودية (بيكا) التي أنشأها البارون الصهيوني موريس دي هيرش. وتلقّت المشاريع الزراعية للصندوق القومي اليهودي (JNF) دعم السلطات الاستعمارية البريطانية، التي أوصت بزراعة الأشجار

لمكافحة تآكل الأراضي، وإنشاء الكثبان الرملية، والمساعدة في تخزين المياه الجوفية. وفي الوقت ذاته، استجاب هذا المشروع لتزايد الطلب على الأخشاب التي دعمت الاقتصاد الإنجليزي المتنامي بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

تكثّفت جهود التشجير البريطانية والصهيونية، وأخذ الصندوق القومي اليهودي بتطوير المشاتل والمزارع بشكل منهجي، من خلال جمع التبرعات وشراء الأراضي في فلسطين العثمانية وإقامة مستوطنات ومشاريع زراعية لتوطين المهاجرين اليهود وتشغيلهم. كما أطلق الصندوق حملةً لجمع التبرعات من اليهود في جميع أنحاء العالم، ومنح كل عائلة ومدرسة صندوقًا نقديًا عرف باسم "الصندوق الأزرق" لتلقّي التبرعات. كما حدّد الصندوق القومي اليهودي يوم 15 من شهر شباط وفق التقويم اليهودي عيدًا لزراعة الأشجار، وذلك لحشد المستوطنين حول الفكرة.

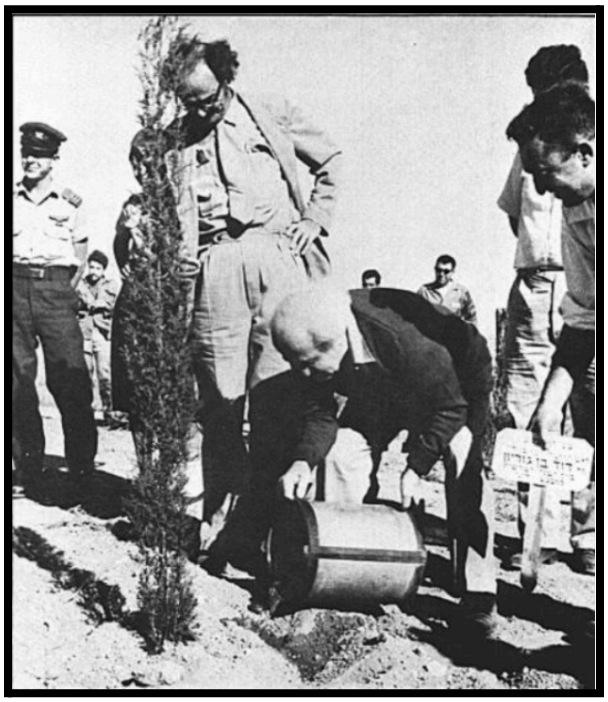
تركّزت جهود التشجير في مناطق مثل الخليل، والسهول الساحلية، والمدن التي تحمل قيمة الرمزية مثل القدس، حيث زُرِعت الأشجار في الأحياء الجديدة، وحول الدوائر الحكومية، والمواقع التاريخية والدينية. ومع مرور الوقت، تحوّلت هذه الجهود إلى استراتيجية توسعيّة لامتلاك الأرض، حيث كانت الأراضي المزروعة تتوسّع وتتوحّد لتشكل قطعًا متّصلة من الأراضي تمهيدًا لإخضاعها للسيطرة اليهودية. وهذا ما تحقّق بعد حرب 1948، حيث خضعت هذه الأراضي المشجّرة للحكم الإسرائيلي بشكل حتمي.

بعد إنشاء دولة الاحتلال، أكمل الصندوق القومي أعمال التشجير، هذه المرة، بالتعاون مع وزارة الزراعة الإسرائيلية. وقد طلب بن غوريون، رئيس الحكومة آنذاك، في افتتاح الدورة الثانية للكنيست عام 1951، من الشعب الاتحاد من أجل "تزهير الصحراء"، قائلًا: "علينا زراعة مئات الآلاف من الأشجار على مساحة 5 ملايين دونم، أي ربع البلاد. يجب أن نغطي جميع جبال البلاد ومنحدراتها، وكل الهضاب والأراضي الصخرية غير المناسبة للزراعة، والكثبان الساحلية، والأراضي القاحلة في النقب بالغابات [...] هذا هو فقط بداية إصلاح

الإهانة التي تحملتها الأجيال. الإهانة التي تحمّلها الشعب. الإهانة التي تحملتها الأرض. لقد وضعنا كل قوتنا المهنية من أجل الوطن".

بحسب بن غوريون، يتمتع مشروع التشجير بقيمة مزدوجة؛ فهو يخلق فرص عمل عديدة، فضلًا عن تمتين ارتباط المهاجرين الجدد بالأرض. برأيه، "زراعة الأشجار هي الطريقة الوحيدة لمساعدة الشعب اليهودي على تطوير علاقة عاطفية قوية بالأرض". وبذلك، لعب التشجير دورًا كبيرًا في بناء الهوية الوطنية وخلق شعور

بالانتماء، وشكّل وسيلة لأولئك الذين ينضمّون إلى مواقع الزراعة الوطنية ليكتسبوا مكانة شبيهة بمكانة "الشعوب الأصلية" من خلال المشاركة في بناء البلاد وترك بصمتهم على الأرض. حتى نهاية القرن العشرين، استمرت هذه الدعاية للعمل في تشجيع الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي السابق. وفي النهاية، كما وصف بن غوريون في خطابه، أحدثت هذه المشاريع تغييرًا جذريًّا في مشهد فلسطين الطبيعي.



مصدر الصورة: نقلاً عن «The Afforestation in Israel» لصموئيل آي. كوهين، مجلة الغابات (Journal of Forestry).

تركّزت عمليات التشجير في هذه المرحلة على الجبال الممتدة من الجليل إلى القدس، ثم شمال صحراء النقب. بين عامي 1950 و1960، غُرست الأشجار على مساحة 190 ألف دونمٍ، وبين عامي 1960 و1970، على مساحة 210 آلاف دونم. وبحلول عام 2007، زادت مساحة الأراضي المزروعة بالأشجار بمقدار 530 ألف دونم. واليوم تغطّي الغابات نحو 1.18 مليون دونم من الأراضي، لا تزيد مساحة الغابات الأصلية منها، والتي وجدت دون تدخل من الحركة الصهيونية عن 242 ألف دونم، أمّا باقي المساحات فقد زرّعتها "إسرائيل". تغطي الأشجار الصنوبرية (الصنوبر والسرو) 40% من هذه المساحات المزرّعة، ويغطّي الأوكالبتوس 13.5% منها، أمّا الأشجار المحلية مثل البلوط والخروب والزيتون، فلا تزيد نسبة ما تغطّيه عن 5.1% فقط.

وترتبط عمليات التشجير هذه بالأهداف التي حدّدتها دولة الاحتلال بعد النكبة، والتي تتمثّل في محو القرى الفلسطينية التي هُجر أهلها. وفي منطقة القدس الجبلية على وجه الخصوص، مُحيَ كل ما هو فلسطيني، بتاريخه الممتدّ لعشرة آلاف عام، لصالح كل ما يوحي بصهيونية المكان ويهوديته. ونتيجة العقلية الاستعمارية الأوروبية، نُقل المكان الأوروبي إلى فلسطين، حتى يألف المستوطنون المكان ولا يستوحشوا

غربته. ساهمت في ذلك أيضًا قدرة أشجار الصنوبر على النمو السريع في المناطق شبه القاحلة وعدم احتياجه لكمياتٍ كبيرةٍ من المياه.

وقد صُنّفت هذه الأراضي التي هُجر أهلها على أنّها "أملاك غائبين"، الأمر الذي سمح لـ "إسرائيل" بالسيطرة عليها ثم نقلها إلى الصندوق القومي اليهودي، ليصبح بذلك أكبر مالك للأراضي في فلسطين. وبهذا تحوّلت إحدى وسبعون قرية مهجرة إلى مناطق جذب سياحي، غُطّيَ أكثر من نصفها بالغابات الكثيفة من خلال حملات زراعة الأشجار.

سعى الصهاينة عن طريق زراعة غابات السرو والصنوبر على أنقاض القرى إلى إنكار وجود القرى الفلسطينية. ومن أبرز الأمثلة على هذا المحو غابة القدس المستزرعة، التي أخفت قرى القبو وعلاّر وصوبا

وعين كارم وغيرها. ويمكن للمتجوّل في هذه القرى أن يعثر على بقايا منازل فلسطينية مهدّمة بين أشجار الصنوبر، كما في قرية عجور في قضاء القدس، حيث أقيمت الحديقة النباتية. كما أنشأت "إسرائيل" حدائق عامة وغابات في القرى التي أخليت من السكان بعد التهجير، مثل قريتي عمواس ويالو في قضاء الرملة.

تروي هذه الأشجار رواية الاستعمار الاستيطاني لأرض فلسطين. بالنسبة للفلسطينيين، يمثّل اقتلاع المحتلّ الإسرائيلي لأشجارهم سلبَه أرضهم أيضًا، كما تحمل الفؤوس ذاتها التي قطعت جذوع أشجارهم دمَ الآلاف منهم، أمّا الأغصانُ التي جَرّدتها من زيتونها أيدٍ لم تغرسها، فتروي حكاية معاناتهم المستمرة على يد المستعمر.

في المقابل، أصبحت أشجار الصنوبريات التي تهيمن اليوم على المشهد الطبيعي رمزًا لليهود في الشتات. تهدف هذه الأشجار دائمة الخضرة إلى تخفيف قلق التيه المستمر الذي عاشوه، وتوفير شعور بالارتباط بأرض ليست أرضهم، في محاولة لبناء صلة لشعب بلا وطن مع وطن لا ينتمي إليهم.

قائمة المراجع:

"تاريخ مختصر للغابة الاستعمارية في فلسطين"، فريق التحرير، نشر على موقع باب الواد بتاريخ ٢٦.١١.٢٠٢٤ يمكن مراجعته على الرابط التالي: https://shorturl.at/33oVu

"في فلسطين... مستوطنات أشجار من غير هذه البلاد" رند عبد القادر، نُشر بتاريخ ٠٨.٠٩.٢٠٢٣على موقع درج، يمكن مراجعته على الرابط التالي: https://bitly.cx/tGUFo

"التشجير الاستعماري في فلسطين ١"، محمد يونس، نُشر بتاريخ ٢٤.٠٨.٢٠٢١ على موقع باب الواد، يمكن مراجعته على الرابط التالي: https://bitly.cx/8O3T

COP26: Jerusalem Wildfires in Summer 2021, When Climate Change-Related Wildfires Expose the JNF's Colonial Afforestation Project. 06.11.2021. https://www.alhaq.org/advocacy/19171.html

"Making the desert bloom": How Zionist colonialism planted trees and uprooted a people, Nadav JoffeandAdèle Ribout.07.08.2024. https://bitly.cx/3k9tA